

قاضي واسط يتأوه

أبو الفضائل علي بن أبي المظفر يوسف بن أحمد الأمدي من بيت معروف بالصلاح والرواية - وكان ممن كثرت أسفارهم وتعددت رحلاتهم - قدم إلى بغداد وأقام بها وتفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث من جماعة كبيرة ببغداد وتولى القضاء بواسط في عام ٦٠٤ هـ. هذا المسافر له أشعار رائعة أطربتني أبيات قرأتها له وهزّت نفسي وملكت مشاعري، فأحببت أن أتحف بها إخواني المسافرين علّها أن تروقهم وأن تطرد عنهم السامة والتعب من طول السفر. يقول:

واهاً له ذكّر الحمى فتأوّها ودعا به داعي الصبا فتولّها
هاجت بلبله البلبل فأنثت أشجائه تشني عن الحلم النهي
فشكا جوى وبكى أسى وتنبه الـ وجد القديم ولم يزل متنبهاً
قالوا وهى جلدأ ولو علق الهوى بيلملم يوماً تأوّه أو وهى
لا تكروهه على السلو فطائعا حمل الغرام فكيف يسلو مكرها
يا عتب لا عتب عليك فسامحي وصلي فقد بلغ السقام المنتهى
علمت بان الجزع ميل غصونه لما خطرت عليه في حلل البها
ومنحت غنج اللحظ غزلان النقا فلذاك أحسن ما يرى عين المها
لولا دلالك لم أبت متقسّم الـ عزّ مات مسلوب الرقاد متيها
لي أربع شهداء في صدق الولا دمع وحزن مفرط وتدلّها
وبلابل تعادني لو أنها في يذبل يوماً لأصبح كالشها
لام العواذل في هواك فما ارعوى ونهاه عنك اللائمون وما انتهى
قالوا اشتهاك وقد رآك مليحة عجباً وأني مليحة لا تشتهى
أنا أعشق العشاق فيك ولا أرى مثلي ولا لك في الملاحه مشبها

من أخبار المسافرين (٢٧)

ابن محلم الخزاعي

هذا هو أبو المنهال عوف بن محلم الخزاعي، أحد الأدباء والرواة العُصماء، والشعراء الفصحاء، وكان أحد وزراء المأمون، وقد اختصه طاهر بن الحسين لمناديمته ومسامرته، وكان لا يخرج في سفرٍ إلاً أخرجته معه وجعله زميله وأنيسه، فلما مات طاهر بن الحسين قرّبه عبدالله بن طاهر من نفسه، وأنزله منزلته من أبيه، وكان ابن محلم يتطلّف عبدالله بن طاهر للرجوع إلى أهله والعودة إلى وطنه، فقد اشتد شوقه إليهم وزاد حنينه إليهم، فلم يوافق له أبداً وفي مرةٍ من المرات وهما في سفرٍ من بغداد إلى خراسان، فلما اقتربا من الرّي، سمع عبدالله صوت طائرٍ يغرد بأحسن تغريد، فأعجب عبدالله بصوته، والتفت إلى عوف ابن محلم فقال له: يا ابن محلم، هل سمعت قطُّ أشجى من هذا الصوت وأطرب منه؟ فقال: لا والله أيُّها الأمير، وإنه لحسن الصوت، شجّي النغمة، مطربُّ التغريد، ثم قال: قاتل الله أباكبيرٍ حيث يقولُ:

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميادٌ فميم تنوحُ
أفق لا تنح من غير شيءٍ فإنني بكيثُ زماناً والفؤادُ صحيحُ
ولوعاً فشطت غربة دارُ زينبٍ فهأنا أبكي والفؤادُ قريحُ
فقال عوفُ: أحسن والله أبوكبير - إنه كان في الهذليين مائةٌ وثلاثون
شاعراً ما فيهم إلاً مُفلقٌ، وما كان فيهم مثلُ أبي كبيرٍ فإنه كان يبدعُ في
شعره، ويُفهم آخر قوله وأوله، وما شيءٌ أبلغ في الشعر من الإبداع فيه .

قال عبدالله: أقسمت عليك إلاً أجرتَ شعرَ أبي كبيرٍ؟ قال عوفُ:
أصلح الله الأمير، قد كبر سنِّي، وفني ذهني، وأنكرتُ كلَّ ما كنتُ أعرفُهُ.
قال عبدالله: سألتك بالله، فلما سمع عوفُ ذلك أنشأ يقولُ:

أفي كلِّ يومٍ غربتُ ونزوحُ
 لقد طَلَحَ البينُ المشتُّ ركائبي
 وأرقتني بالرِّيِّ نوحُ حمامةٍ
 على أنها ناحت فلم تذرِ دمعَةً
 وناحت وفرخاها بحيثِ تراهما
 عسى جود عبد الله أن يبكي النوى
 فلما سمع عبد الله هذه الأبيات أذن له من ساعته بالرجوع ووصله بعشرة
 آلاف درهم ورده إلى منزله .

وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا

أناسٌ أحبُّوا السفر في المفاوز والصحاري بدلاً من النعمة التي كانوا فيها على السير في القرى المتواصلة الغنية بالأشجار والثمار والمياه. وهذا من خذلان الله لهم والعياذ بالله، فإن المرء إذا بطر النعمة وكفر خالقها، وتنكر لمسديها، بذل الله عليه النعمة نقمة، وأبدله بدل الأمن خوفاً، وبدل الرخاء شدة، وبدل الراحة عناء، وهؤلاء قوم سبأ عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعتبين ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]

كانوا في رغدٍ من العيش عظيم، وفي رزق من الله كريم، ثمار وأشجار. . عيون وآبار. . أمن وأمان، هدوءٍ واطمئنان. فأرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويتنعموا بنعمه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فاستجابوا لذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به، وتنكروا لما دعوا إليه، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم والتفرق في البلاد شذر مذر ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً رَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جِزَاءُ مَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧]

ولم يكتف أهل سبأ بما حصل لهم من النعمة والخذلان، بل دعوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم فحدث لهم ذلك ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق

[سبأ: ١٨-١٩]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٨﴾

ونترككم الآن مع العلامة ابن كثير رحمه الله ليفسّر لنا هذه الآيات :
يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقبل في قرية ويبيت في أخرى .

ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ أي واضحة يقبلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز وصحاري يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف . كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ وقال هؤلاء: ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضربَ المثل، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ.. وهكذا فقد تفرقوا.. فمنهم من خرج إلى عُمان، وخرجت غسان إلى بصرى، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً

فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عمان. ثم أرسل الله تعالى على السد فهدمه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات.

قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس:

وفي ذاك للمؤتسي أسوةً ومأرب ققى عليها العرم
رجامٌ بنته لهم حميرٌ إذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنا بها على سعة ماؤهم إذ قُسم
فصاروا أيادي ما يقدر ن منه على شرب طفل فطم

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١١٥) أي إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام، لعبارة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم. وفي الصحيح: «عجبا للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤)

﴿ يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾